



حرص البيت الأبيض على تأكيد أن باراك أوباما لن يغير، في الشهور الأخيرة من ولايته الثانية، سياسة عدم الانخراط عسكرياً في سوريا. وكان بذلك يرد على مذكرة «صحوة الضمير» التي وقّعها بعض عشرات من дبلوماسيين الذين عملوا على الملف السوري في الخارجية الأمريكية. يعرف أوباما، إذًا، أن سياسته تلك لم تكن أخلاقية، لكنه يستطيع أن يجادل بأنها كانت «مصلحة أميركا». والمفارقة أن أوباما وجون كيري لم يهاجما المذكرة، بل رحّبا بها ولم يوبّخا دبلوماسيها بل أظهرا افتاحاً على أفكارهم، وهو تصرف لا يمكن أن يتوقع من فلاديمير بوتين لو قدر لدبلوماسيين عنده أن ينتقدوا سياساته، حتى أن وزارتي الخارجية والدفاع الروسيتين ابْرَتا للتنديد بمذكرة الدبلوماسيين الأميركيين، تحديداً لأنهم طلبوا من رئيسهم شن ضربات عسكرية ضد نظام بشار الأسد. وقد تولّ ناطق الكرملين الرد على هذه النقطة بمصطلحات الأسد نفسه قائلاً إن أي محاولة لإسقاط النظام «لن تساعده على مكافحة الإرهاب وستفرق المنطقة في فوضى شاملة»...

هذا التلوّح بالفوضى الشاملة في الشرق الأوسط لا يقلق واشنطن، فهو يشير ظاهرياً إلى تمسّك روسي بورقة محروقة هي نظام الأسد، لكنه يرتبط واقعياً بتصاعد التوتر الروسي - الأطلسي وهذا بدوره لا يقلق واشنطن. إذ يستطيع بوتين أن يناور في سوريا ويكسب نقاطاً كيما يشاء، لكنه ذهب أصلاً إلى سوريا ليكسب استراتيجية وليس مجرد نقاط في مواجهته مع «الناتو». ويتبّع الآن أن الكلام الأميركي طوال الأعوام الأخيرة عن ضرورة تغيير روسيا حساباتها كان يتعلّق شكلياً بسوريا وجوهرياً بالسياسات الدافعية الغربية. لذلك لا يمانع الأميركيون أن يستحوذ الروس على سوريا في شرق الأوسط ملتهب مقابل أن يكسب حلف الأطلسي في أوروبا. وانطلاقاً من ذلك، لا ينزعج أوباما من تسلّط أصوات الإعلام على الإخفاقات الأميركيّة في سوريا ولا من استغلالها روسياً، ففي نهاية المطاف كان خطاب بوتين في منتدى سان بطرسبرغ ضعيفاً إزاء ما يعتزمه «الناتو» من نشر كتائب عسكرية متعددة الجنسية في خمس دول أوروبية شرقية، بعدما استكمّل نشر منظومة الصواريخ الدافعية.

على رغم ذلك، لا تستطيع إدارة أوباما إنكار أن التحذير الداخلي جاء في لحظة حرج، فقد ظهر بوضوح أن بوتين يتحدّاه ويستغلّ ضعفه وهشاشة سياساته خصوصاً في سوريا، والأهم أن هذا الضعف يتسبّب بـمأسٍ إنسانية مروعة. ذاك أن «عدم التدخل» فشل، و«التفاهم» مع روسيا فشل، و«التوافق» مع الحلفاء فشل، و«صون مصالح» الأصدقاء فشل، و«مجاملة» إيران فشلت. ثم إن هذه الخيارات لم تمنع استشارة الإرهاب ولم تردع النظام المجرم بل انعشه وأبدت «سرّاً» الاستعداد لإعادة تأهيله عبر «اقتراح أمريكي بضمّ معارضين إلى حكومة الأسد» وفقاً لما كشفه بوتين وللنفي الشكلي الخجول الذي أصدرته واشنطن. ولا داعي للتدقيق في أي الطرفين أكثر صدقية، طالما أنّهما يتناهان في كذب يترجم يومياً في سوريا بمزيد من الضحايا. حتى أن ردود الفعل الهائلة لم تختلف كثيراً إزاء قول جون كيري أن «لصبر أميركا حدوداً»، أو قول بوتين إن روسيا لا تسعى إلى توسيع سلطة الأسد، بل إلى «تعزيز الثقة بين مكونات الشعب السوري». فلا واشنطن تلوح بأي «خطبة باع» ولا موسكو مؤهلة لبناء الثقة بين أي «مكونات» بوجود الأسد ونظامه.

لعل مذكرة الدبلوماسيين الأميركيين وجّهت الأنظار إلى واقع أن الروس والإيرانيين والنظام يدعّون محاربة الإرهاب، لكنهم

يركّزون ضرباتهم على فسائل المعارضة وبالأخص على المدنيين والمرافق المدنية وواصلون القتل والتهجير والدمار، فيما الأميركيون يتفرّجون ملتزمين «محاربة الإرهاب» من دون أن يكون لديهم أي تصوّر لـ «ما بعد» إخراج «داعش» من الرقة كما لو أن إدارة أوباما عازمة على إهاء مجدها هذا إلى نظام الأسد وحليفه الإيراني تحديداً، أو إلى مشروع الإقليم الكردي.

فوق ذلك قصف الروس مواقع «جيش سوريا الجديد» الذي تأسس بإشراف أميركي – بريطاني لمقاتلة تنظيم «داعش» حصرياً، وكان الاحتجاج الأميركي غير العلني أقوى من أي احتجاج سابق على استخدام البراميل المتفجرة أو القصف الوحشي لمستشفيات حلب، لكن الروس تذرّعوا بـ «صعوبة» التمييز بين المعارضين «المعتدلين» و«المتطرفين»، علماً أن موقع التنف الذي ضربوه لا ينطوي على إشكالٍ كهذا، وبالتالي فإن القصف كان رديعاً. وعلى رغم أن الدولتين توصلتا إلى اتفاق جديد لتنسيق ضرباتهما الجوية لم يكن واضحاً ماذا يعني ذلك بالنسبة إلى وضع المعارضة، أو إلى «الهدنة» واستئناف المفاوضات.

كانت مواقف القوى الخارجية استثنائية أخيراً في كشف تناقضات كامنة أو مستجدة في ما بينها، كما في التنافس الأميركي – الروسي على «أبوة» تحرير الرقة من سيطرة تنظيم «داعش»، أو في سجال بين الدولتين في شأن وقف إطلاق النار واقتراحات للتسوية سياسية، حتى أن إيران صار وزير خارجيتها يقول إن الحل في سوريا «ليس عسكرياً». وفي المقابل، بزرت تناقضات بين النظام وحلفائه سواء في اشتباكات قواه مع مقاتلي ميليشيات كـ «حزب الله» و«أبو فضل العباس»، أو في عدم احترامه ولو لساعة واحدة هدنة أعلناها الروس لثمانٍ وأربعين ساعة في حلب.

هذه التعارضات كانت متوقعة وستبقى عرضة للتصعيد لأسباب عدة:

1) استحالة ضبط العمليات العسكرية وفقاً لـ «تفاهمات» هشة بين أميركا وروسيا من دون توافق واعي على المصالح على المخرج السياسي الأنسب من الأزمة.

2) سوء إدارة روسيا للملف الذي تقوده باعتراف دولي، فهي غير متحكمة بحركة النظام وخياراته، لارتباطه بأهدافها وعدم حصولها على ضمان الأميركي لبقاء الأسد.

3) غموض التنسيق بين موسكو وطهران، فهما لا تعملان على موجة واحدة، ولا مؤشرات ملموسة إلى اتفاقهما على الأهداف في سوريا.

4) طالما أن موسكو متمسّكة بالتحاور والتنسيق مع واشنطن فإن طهران ستواصل البحث عن تفاهم محتمل بينها وبين واشنطن، أما النظام فيرى أن المجال مفتوح أمامه للاستفادة من الدورين الروسي والإيراني في آن.

في السابق، ساهمت القوى الدولية في هندسة الاستعصاء السوري وفقاً لمعادلة «لا المعارضة تُسقط النظام ولا النظام يصفي المعارضة»، واعتبرت هذه المعادلة بمثابة إرادة دولية تحضّ الطرفين على «الحل السياسي»، غير أن أصحاب الإرادة الدولية هم الذين قوّضوا ذلك الحل وتركوا الوضع السوري يراوح مكانه ويتعرّض، إلى أن تحرّكت المعارضة في ربيع 2015 لتفجيره.

وبعد التدخل الروسي رجحت كفة النظامين السوري والإيراني اللذين اعتبرا أن المبرّ الوحيد لوجود الروس هو تعزيز الفرصة المتاحة للحل العسكري، وهذه نظرة قاصرة لأن موسكو حسابات مختلفة، فهي قد تحقق بعض رغبات حلفائها بشرط أن تتوافق مع مصالح كبرى تريده اقتناصها بملاءمة أميركا سياسياً وعسكرياً على الساحة السورية.

وهكذا انتقل الاستعصاء إلى الأطراف الخارجية نفسها، حين تبادلت إحباط أهداف بعضها بعضاً، وراحت تراكم الإخفاقات في إدارة المفاوضات وفرض احترام الهدنة كما في إخضاع المساعدات الإنسانية لابتزازات النظام. وبما أنها تدّعي جمِيعاً محاربة الإرهاب فقد وجدت أن السبيل للخروج من المأزق بالذهاب إلى «تحرير الرقة». وعلى رغم اتفاقها المفترض على هذا الهدف سارت الخلافات على أدوات «التحرير» وأساليبه، إذ عمدت أميركا وروسيا إلى تلغييمها بالأكراد، كلٌّ على حدة، ولغايات خاصة مختلفة، وبالتالي بات الطريق إلى الرقة محفوفاً باحتمالات اصطدام ميليشيات روسيا (النظام وإيران) بميليشيات أميركا («قوات سوريا الديمقراطية»). وفجأة تذكّرت تركيا وإيران أن تنافرهما لا يلغي التقاء مصالحهما ضد صعود الدور الكردي. كان نظام الأسد وإيران دعماً للأكراد ليكونوا ورقة في مساوماتهما من جهة وقاطرة للتقسيم الذي يحقق مصالحهما السورية من جهة أخرى. بل أنهما استخدما الورقة الكردية لتهديد تركيا ظنّاً منها أنها بمنأى عن خطّرها، غير أن أميركا اخترفت هذه الورقة بفضل «داعش» ثم دخل الروس لمنافستهم عليها متعهّدين ما لا يتعهّد به الأميركيون ثلبيّة لطموحات الكرد.

الحياة اللندنية

المصادر: